

دلائل الإعجاز

علماً وتصوراً تَه حقَّ تصويره فعليك صاحبك واشدُّد به يدك فهو ضالَّتك وعنده
بُغْيَتُكَ وطريقُهُ طريق قولك : هل سمعت بالأسد وهل تعرف ما هو فإن كنت تعرفه فزيد
هوَ هوَ بعينه .

ويزدادُ هذا المعنى ظهوراً بأن تكون الصفة التي تريدُ الإخبارَ بها عن المبتدأ
مُجْراًةً على موصوفٍ كقول ابن الرومي - الطويل - : .

(هُوَ الرَّجُلُ المشْرُوكُ في جُلِّ ماله ... ولكنَّه بالمَجْدِ والْحَمْدِ
مُفْرَدٌ) .

تقديرُهُ كأنه يقولُ للسامع : فكِّر في رجلٍ لا يتميَّز عِفَاتُهُ وجيرانُهُ ومعارفُهُ
عَنْهُ في ماله وأخذٍ ما شاؤوا منه . فإذا حصَّلت صورته في نفسك فاعلم أنه ذلك
الرجل . وهذا فنُّ عجيبُ الشأن وله مكانٌ من الفخامة والذُّبيل وهو مِن سحر
البيان الذي تقصُرُ العبارةُ عن تأدية حقِّه والمُعَوَّلُ فيه على مراجعة النفس
واستقصاء التأمُّل . فإذا علمت أنه لا يريدُ بقوله : الرجلُ المشْرُوكُ في جُلِّ ماله
أن يقول هو الذي بلغك حديثه وعرفت من حاله وقصته أنه يشرك في جل ماله على حدِّ قولك :
هو الرجل الذي بلغك أنه أنفق كذا والذي وهبَ المئة المصطفاة من الإبل . ولا أن
يقول إنه على معنى : " هو الكاملُ في هذه الصفة حتَّى كأنَّ هاهنا أقواماً يُشْرِكُون في
جلِّ أموالهم إلاَّ أنه في ذلك أكملُ وأتم " لأن ذلك لا يتصوَّر . وذاك أن كَوْنَ الرجل
بحيث يُشْرِكُ في جلِّ ماله ليس بمعنى يقع فيه تفاضُّل . كما أن بذلَ الرجل كلَّ ما
يملك كذلك ولو قيل : الذي يُشْرِكُ في ماله جاز أن يتفاوت . وإذا كان كذلك علمت
أنه معذِّي ثالثٌ وليس إلاَّ ما أشرت إليه من أنه يقول للمخاطب : ضع في نفسك معنى
قولك " رجلٌ مشْرُوكٌ في جلِّ ماله " . ثم تأمَّل فلاناً فإنك تَسْتَملي هذه الصورةَ منه
وتجدُّه يؤدِّبها لك نصّاً ويأتيك بها كملاً . وإن أردت أن تسمع في هذا المعنى ما
تسكنُ النفسُ إليه سكون الصَّادِي إلى بَرَدِ الماءِ فاسمعُ قوله - الطويل - : .
(أنَا الرَّجُلُ المَدْعُوُّ عاشقَ فَقْرِهِ ... إذا لم تُكَارِمْني صُرُوفُ
زَمَانِي)